قصة

ثلاث وردات

□ عادل سالم *

كان يفاجئها كل صباح في الطريق إلى المدرسة، كأنه على موعد معها. لم تكن فاتنة تعلم أن خليل يتعمد ذلك، وينتظر مرورها من باب العامود ليسير خلفها حتى أول شارع صلاح الدين، حيث يذهب هو إلى المدرسة الرشيدية القريبة من هناك، في حين تواصل هي طريقها إلى المدرسة المأمونية التي تبعد عن مدرسته خمس دقائق سيرا على الأقدام في مدينة القدس.

وكان حريصا عند وداعها في مدخل شارع صلاح الدين أن يرسل إليها ابتسامة خفيفة كعادة عشاق السبعينات من القرن العشرين، ويغمض عينيه لثانيتين ثم يفتحهما كأنه يرسل إليها رسالته اليومية المليئة بمشاعر العشق، والغرام.

كان خليل يسكن في عقبة البطيخ في البلدة القديمة قريبا من منجرة صندوقة، أما هي فكانت تسكن في شارع الواد القريب منه، قريبا من مخبز الحشيمة. إنه شاب ظريف، لكنها كانت تخاف أن يشعر أحد بملاحقته لها فتحصل كارثة، فقد يضربها أبوها ويمنعها من الدراسة.

في أحد الأيام اقترب منها كثيرا، ودس لها ورقة في حقيبة يدها. استغربت هذه الجرأة غير المعهودة فيه. ماتت خوفا، فلو رآها أحد فماذا سيقول؟

كادت تسحب الورقة من الحقيبة وترميها إليه، نظرت فإذا به اختفى هذه المرة على غير عادته. فكرت قبل أن ترمي رسالته، ماذا لو رآها أحد الطلاب، فحملها وقرأ ما بها؟ ستكون المصيبة أكبر، وتصير فاتنة على كل لسان. فكرت قليلا، ثم تراجعت عن خطتها، ستقرأ الرسالة في المدرسة، ثم تمزقها وترميها على الفور.

– يا له من عاشق! أيحبني إلى هذا الحد؟ إن كان يحبني فعليه أن يحرص على مصلحتي. سأعاتبه في المرة القادمة. لكن كيف أعاتبه وأنا لا أحادثه؟ سأرى ما كتبه لي في رسالته.

وصلت فاتنة إلى المدرسة، انزوت جانبا أخرجت الرسالة من حقيبتها، فتحتها، فإذا هي بيان مطبوع بمناسبة «يوم الأرض» الذي يصادف 31 آذار في اليوم التالي يدعو الطلاب إلى الإضراب عن الدراسة، وفي ختام البيان كلمات الشاعر الفلسطيني سميح القاسم:

يا عدو الشمس لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي
سأقاوم

الآن عرفت فاتنة سر جرأته في دس الرسالة في حقيبتها، إنه يريدها توزيع البيان على الطالبات، إنه من الوطنيين إذن. حمدت الله أنها لم تتلف البيان قبل قراءته، وزعت النسخة على الطالبات اللواتي تلقفنه واحدة بعد الأخرى وقررن المشاركة في المسيرة السلمية التي ستنطلق في اليوم التالي بالمناسبة، حاملات الأعلام الفلسطينية ولافتات تطالب بوقف مصادرة الأراضي من المواطنين العرب.

في اليوم التالي خرجت طالبات مدرسة المأمونية في مسيرة حاشدة باتجاه باب الساهرة، فالتقت المسيرة هناك بطلبة المدرسة الرشيدية للذكور، وبعد دقائق انضم إليهم طلبة الكلية (الإبراهيمية (ذكورا، وإناثا) ثم بدأت مسيرات الطلبة تتضاعف بمشاركة طلبة المدارس الأخرى، وانطلق المتظاهرون نحو باب العامود (الباب الرئيس للبلدة القديمة.

كانت أعلام فلسطين الممنوعة في تلك الأيام ترفرف عاليا. وقبل أن تصل المسيرة إلى باب العامود، وهي مسافة قصيرة، كانت سيارة الشرطة الإسرائيلية، وحرس الحدود، وخيالة القمع، تحاصر المتظاهرين من كل الجهات. ورغم أنهم كانوا يتظاهرون سلميا، إلا أن قوات الشرطة والجيش بدأوا بإطلاق الرصاص الحي، والمطاطي عليهم. ها هو خليل يظهر مرة أخرى، لكنه هذه المرة محمولا فوق الأكتاف رافعا علم فلسطين، هاتفا بصوت ما يزال يتردد صداه في أذنها:

فلسطين عربية
فلترحل الصهيونية

لم يكمل خليل هتافه فقد سقط برصاصة أصابته في يده، وتوالى الرصاص، فاضطر الطلاب إلى التفرق يجرون معهم جراحهم. واعتقلت الشرطة عشرات منهم. عادت فاتنة إلى البيت وقد ازدادت إعجابا بخليل، متمنية أن تراه سالما في اليوم التالي. لم يكن في تلك الأيام هواتف خلوية ولا فضائيات، وكانت الإذاعات العربية تكتفي بنشر خبر عابر عن المسيرة، لذلك لم تستطع معرفة أخبار خليل، ولا كيف تطمئن عليه.

توجهت صباح اليوم التالي إلى المدرسة، لكنها لم تجد خليل ينتظرها كعادته، فعرفت من بعض الطالبات في المدرسة أنه نزيل مستشفى المقاصد الخيرية في جبل الطور، فقررت بعد الظهر زيارته للاطمئنان على صحته. في الطريق من شارع صلاح الدين مرت على محل بيع الزهور واقتربت من صاحب المحل بخجل وسألته:

– ألديك وردة بعشرة قروش؟

نظر إليها صاحب المحل وقد استفزه سؤالها، فأسعار الورد أكثر من ذلك بكثير وقال لها:

– اذهبي لشأنك أيتها الطالبة.

فجأة خرجت من داخل المحل امرأة يبدو أنها زوجته، وسألتها بعد أن رأت فيها صورة لها وهي طالبة مدرسة:

– لماذا تريدين الوردة؟ أجابتها بهدوء:

– لكي أهديها إلى مريض. نظرت إليها مبتسمة، ثم سألتها:

– أإلى حبيب القلب؟

ارتبكت فاتنة، صمتت ثم قالت:

– إنه بطل جرح يوم أمس.

– وأين هذا البطل الآن؟

– في مستشفى المقاصد.

دخلت المرأة إلى المحل ثم خرجت ومعها صحيفة (القدس) بيدها، وسألتها وهي تريها صور الجرحى المنشورين في الصفحة الأولى:

– هل هو أحدهم. فوجئت فاتنة بصورته في صدر الصفحة الأولى وقالت لها بصوت يملؤه الفخر:

– نعم إنه ذلك....

– حسنا سأتركك تختارين 3 وردات بعشرة قروش. لن أقدمها لك مجانا، لكي تشعري بقيمتها.

شكرت فاتنة المرأة، وحملت الوردات بعد أن لفتها المرأة بورقة بسبب الشوك الذي يملأ سيقان الوردات.

وانطلقت إلى مستشفى المقاصد مشيا على الأقدام بعد أن لم يبق معها أجرة الطريق. رغم أن المسافة لم تكن بعيدة، حوالي كيلو مترين، لكن جبل الطور ينحدر كثيرا فيصبح المشي إلى القمة متعبا إلى أبعد الحدود، لكن من أجل خليل قررت فاتنة تحمل الصعاب.

توجهت فاتنة إلى غرفة خليل مباشرة بعد الاستفسار من غرفة الاستعلامات، لكنها فوجئت بطلبة كثيرين حول سريره، والأجهزة الطبية تلفه من كل جانب. خجلت وكادت تعود من حيث أتت. لكنها تجرأت في النهاية. استجمعت كل قواها واقتحمت بورداتها الغرفة المليئة أصلا بباقات الورد من مختلف الأنواع. صمت الجميع لدى دخولها، وبدأت العيون تتوجه إليها وإلى ورداتها الثلاث، وحقيبتها التي تتدلى على وسطها بينما حزام الحقيبة على كتفها.

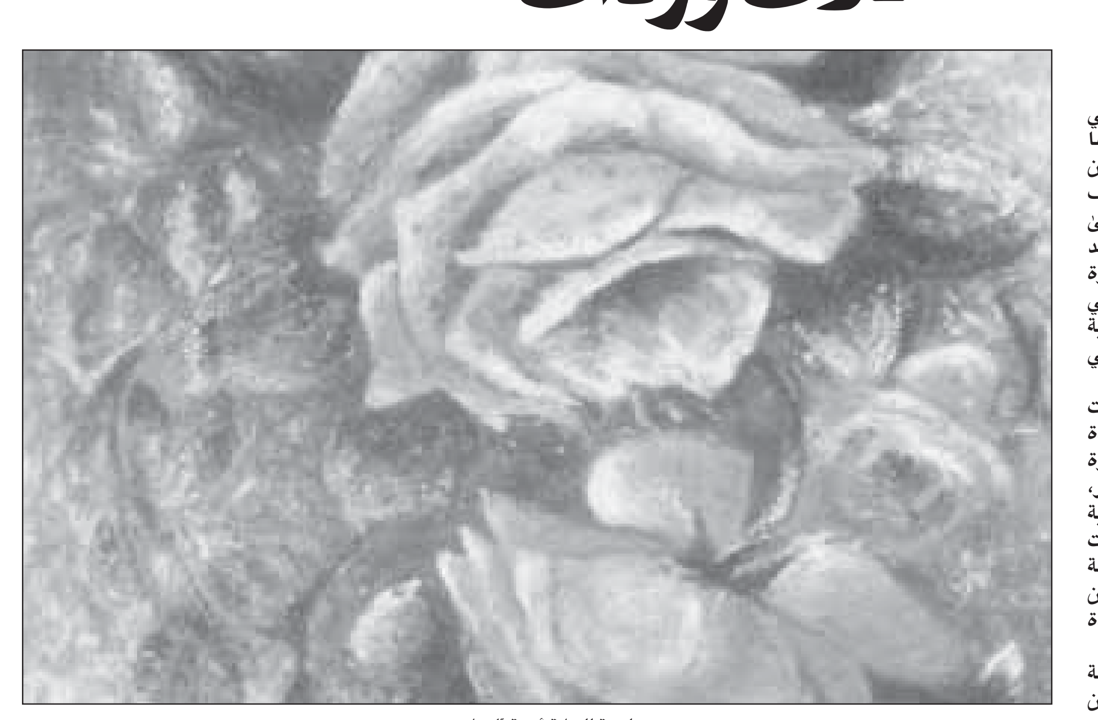
لوحة للفنانة أمينة آل ناصر

عندما رآها خليل تسير باتجاهه فوجئ بها، عدل جلسته وبدأت دقات قلبه تزداد، رد على ابتسامتها بأخرى مماثلة. كانت تسير بخطى بطيئة، ترفع بيدها ورداتها وعيونه تلاحق كل حركة من يدها. تطارد كل تعابير وجهها، وحركات شفتيها، ورموش عينيها. كان حلمه أن يراها قادمة إليه، تمنى لو يحملها الآن ويطير بها على فرس أبيض.

عندما اقتربت منه أغمضت عينيها لثانيتين كما كان يفعل عندما يودعها كل صباح، كأنها ترد على رسائله برسالة أخرى تطفئ أشواقه. كان بعيونه يرسل إليها رسالة خاف أن يبوح بها عبر شفتيه:

– أنا أحبك يا فاتنة.

فماذا في رسالتها اليوم؟

آه ليت تلك العيون تطيل النظر إليه، ليفهم ما يحيط بها من أسرار. تأخر في استلام ورداتها، كأنه يتعمد تأخيرها، أو كأن عيونها أنسته الوردات لأن أمام عينيه، وردة أكبر وأكثر بهاء وجمالا.

ذابت خجلا، ازداد وجهها احمرارا، رد عليها برسالة من عينيه، وضع أصابعه حول الوردات فأمسك بالأشواك، فجرح أصابعه من دون أن يدري.

قالت له بصوت ناعم:

– الحمد لله على السلامة يا بطل.

وغادرت الغرفة بعد أن تحول خداها إلى تفاحتين حمراوين. سال الدم من أصابعه، انطلق أحد الطلبة لإسعافه: يبدو أنك نسيت نفسك.

فقال آخر:

– أتعرفها؟

ثم بدأت تنهمر التعليقات.

عاد خليل بعد أسبوع إلى المدرسة إثر شفائه من إصابته، لكنه فوجئ بغياب فاتنة. كان متوتر الأعصاب، فعاد ينتظرها في اليوم الثاني، الثالث، وعندما تكرر غيابها خشي أن يكون قد حصل لها مكروه بسبب زيارتها له في المستشفى، فقرر زيارة مخبز الكعك في شارع الواد. ذلك المخبز المشهور بالكعك مع السمسم والبيض المشوي، الذي كان تعود زيارته كلما عنّ على باله رؤيتها بعد الدوام المدرسي متذرعا بشراء كعكة مع سمسم أو أكثر، وبعض البيض المشوي لعله يصادفها خارجة من البيت، أو عائدة إليه. وهناك بدأ يستفسر من صاحب المخبز عن جيرانه، فقال له عزمي الحشيمة صاحب المخبز:

– يا خليل بلاش لف ودوران، ماذا تريد؟

ضحك خليل وقال:

– فاتنة ابنة جاركم (فريد قطينة) لم تعد تأتي إلى المدرسة.

– ألم تعرف لماذا؟

– خيرا إن شاء الله.

– لقد سافرت العائلة كلها إلى الولايات المتحدة.

– ماذا تقول؟

– كما سمعت.

– متى؟

– منذ أسبوع.

– ومتى سيعودون؟

– لقد هاجروا نهائيا. تغير وجه خليل، ترك الكعك، وغادر المخبز. ناداه عزمي:

– يا خليل، الكعك ...

عاد خليل من المخبز بعد أن نسي الكعك الذي اشتراه، وظل طوال الطريق يلعن الولايات المتحدة، والآباء الذين يهجرون أوطانهم إليها.

* كاتب من فلسطين

قصص قصيرة جدا

□ الطاهر لكنيزي*

عَصيدة

بعدما نفض يديه من تدبيج نصّ، ذهب إلى صديقه الناقد. تَلاه عليه بحماس زائد وسأله: «إلى أي فرع من الكتابة ينتمي هذا النص؟

– لقد شاخ جدع الكتابة حتى تواشجت أفنانه وتلاقحت، وما بيدك يسمّى عصيدة.»

كساد

انبروا كحُواة يتنافسون في إلقاء ما فرّختْ قرائحُهم من نصوص حربائية عصيّة على الترويض و التنميط. لم يكن بعكاظ غيرهم. لملموا بضاعتهم جملة وأمّوا سوق الق. الق. ج علّهم يجدون مُتلقّين يَتَلقفونها..

امتنان

كان عصيّا على التّدجين فلفظته المدرسة مبكرا. بعصاميّة نادرة سلك دربا قاده إلى قمّة النجاح الاجتماعي. كلما تحدثوا عن الدراسة تأسف عن عدم معرفة من الذي نطق ذات مداولة فيحقه بكلمة يُفْصَل « لم يكن ينوي الانتقام منه ولكن ليشكره ويجازيه لأنه كان سببا في تغيير مساره الذي كان سيفضي به حتما إلى ردب العطالة».

* كاتب من المغرب

□ محمد شوكت الملط*

وردة وقبر

وقف على قبر صديقه القديم،حاملا باقة كاملة من الورد ،ذرفت عيناه الدموع،حزنا على فراقه ،وندما على هجره، بسبب مشكلة تافهة،وقعت بينهما قبل وفاته بشهر،ألقى الورد على القبر ،تمنى لو قدّم له ،ولو وردة في حياته ،كان ذلك أجمل.

ثلاثة أقارب

له من الأقارب ثلاثة،الأول لايطيق فراقه،لا يستغني عنه كالطعام، ،الثاني يحبه ولكنه لا يرغب في مجالسته،الا في بعض الأحيان،فهو كالمضاد الحيوي ضروري للعلاج ،ولكن كثرته مضرة،الثالث لا يكرهه،ولكنه لايحب لقاءه،فهو ممل ومثير للمشاكل ،فهو كالداء في ضرره.

عيوب

اشتغل عن النظر في عيوب الآخرين،داوم على النظر في عيوبه،وكلما ظن أنه انتهى من النظر فيها ،أعاد النظر فيها من جديد،استراح،وأراح الناس،لم يرَ أحدا يكرهه.

*كاتب من العراق

أوان النــــور..

□ سالمين خليفة*

كحجر فسفوري أزداد وميضًا كلما ازدادت قسوة الظلمة من حولي .. السواد الحالك هو أقوى دوافعي للاشتعال..

إذا داهمتك الظلمة ولم تجد ما توقده فعليك بنفسك.. ليكن جسدك الحطب ودمك الزيت وروحك النور.. يقول ناظم حكمت ..

«إن لم تحترق أنت
وإن لم أحترق أنا
فمن عساه سيبدد الظلمة»

صدّقني .. إن الاحتراق لا يعني بالضرورة النهاية.. فحريق روما لم ينه روما.. وحريق مكتبة الإسكندرية قد يكون أتلف الأوراق لكنه لم يتلف الكلمات التي كانت قد سبقت الحريق لتلوذ بعقول الحكماء والعلماء .. لأن الأوراق قد تحترق لكن الكلمات التي فوقها تطير. كم هي رائعة الظلمة.. فهي تستحث الأرواح الكبيرة لأن تفرز ما بداخلها من نور...حتى وان كانت أجسادها بضآلة حشرات اليراع الصغيرة التي لا نراها إلا في الظلام وعبر أنوارها التي تبثها.

في غياهب التاريخ واشد أماده حلكة وقتامة كان الله يبعث الأنبياء والرسل ولم يكن ليفرش أمامهم الطريق بالراحة والرفاهية .. بل بالعذاب والألم.. لقد عُذب المسيح وأبتلي داوود بالمرض والعمى والعجز، ورُمي يوسف في الجبّ صغيرًا، وعاش سنينَ طوالاً تحت نير الرق والظلم، وها هو محمّد اليتيم الفقير يتعرّض لكل أنواع الأذى والعذاب ثم تجذب رسالته الآفاق البعيدة.. بالرغم من الظلم والجور والعسف والجراح ، فإن كل عظماء التاريخ أضاؤوا وللأبد.

عجبًا ...! كيف أنّ من أضدادها تولد الأشياء.. النور من العتمة .. الحيُّ من الميّت .. الميّت من الحيّ. والثورة من الظلم .. فكلما اشتد سواد الليل أزفت تباشير الفجر والبذرة لا تحيا وتترعرع إلا إذا دفنتها تحت الثرى . وأنا.. يبدو إن الذين صنعوني هم من أساءوا إلي وتعرّضوا لي بالأذى والألم .. وكأنني بموسيقيه عند ضفة كل جرح نازف مترنما « لا شيء يجعلنا كبارًا كالألم «.. فلا اللأي ولا المشقة وقفا بي يومًا دون حدود غايتي .. غايتي هي نهاية النفق .. حيث الشمس .. فكل الأشياء الجميلة تعيش تحت الشمس.. تحت الشمس تكون الحياة فتحيا الطيور .. الزهور .. الحقيقة.. الحق.. الضمير...الجمال. بينما لا نجد في الظلام إلا القبور والموت والعفن والدود والطحالب ..

ذلك اليوم كان رأسي المثقل بالهواجس والأسئلة. يمخر بي عباب الحياة بحثًا عن إجابة .. كنت وكأنني قادمة من زمن سحيق ممعن في القدم.. لا أدرى منذ متى وأنا أسير.. أسير!!؟ هل هما قدماي اللتان كانتا تحملانني !؟ أم أنني أهيم في الهواء كشبح.. كان رذاذ المياه المتدفق بغزارة على وجهي هو الذي جلبني من العالم الأخر الذي لم أعد أحسن أن أنبعث منه بسهولة.

صاحت المرأة التي كانت تمسك بخرطوم المياه بلا مبالاة : آسفة.. لم أكن أقصد.. لم أنتبه و.. ظننتني أخاطب نفسي وأنا أردّد : لا عليك.. أنا التي لم تنتبه.. كنت منشغلة بالتفكير بذلك السؤال .. أحاول أن أستكنهه منذ ألف عام تقريبًا وما فتئ العجز يقتلني دون إدراكه ..أنه ذلك السؤال الميتافيزيقي المستعصي .. إنه «اللماذا» التي..

أحسست بقدميَّ تغوصان في مادة رطبة ودبقة وصوت المرأة الزاعق كالنفير يبعثني من جديد وهي تزجرني:

هل أنت عمياء.. كيف لم تلاحظي بركة الوحل التي تقفين في منتصفها الآن.

لم يستأذنني صوتي الذي أحسست به منطلقًا من غور عميق:

« كيف لم تلاحظي يا عمياء القلب بأنك أنت من قام بعمل هذه البركة الموحلة .. ألم تنتبهي بعد إلى خرطوم المياه المندفعة كالشلال وهو يكاد أن يجعل من الشارع مستنقعًا»؟.

ما بال المستنقعات تغمر كل شيء الشوارع..الساحات والنفوس .

قال لي ذلك السيد الذي كنت أشتغل لحسابه حتى هذا الصباح:

كيف سنصل إلى الضفة الثانية إن لم نخض في المستنقع؟

أجبته : بلى ، هناك أكثر من طريقة لكي نرتقي بها فوق هذا الخضم الآسن .. نستطيع أن نعبر بالجسور أو الأجنحة مثلاً ..

وحين تبدّت بين شفتيه ابتسامة السخرية .. ضربت بقبضتي على مكتبه:

أجل كانت دائمًا إرادتي جسري وروحي أجنحتي ، سوف لن أراهن أبدًا على الوصول بقدمين ملطختين .. لم تغادرني قهقهته حتى الآن وهو يصرخ:إذا استعنت بأجنحة عبّاس بن فرناس الشمعية احترسي من الشمس ، أو يمكنك الطيران في الليل إذا شئت؟ أيها الجاهل كل طيور العالم لا تطير إلا في النهار. يا لعذوبة هذه الكلمة ..النهار.. أين أنت أيتها الشمس .. لماذا لا تخترقين جدران قلوب الناس وتضيئين نفوسهم المعتمة..!؟

حين فتحت باب غرفتي كان كدأبه كل يوم كان في انتظاري.. باردًا وكئيبًا .. قابعًا في انتظاري لكي أنفض في أحضانه همومي وأحزاني .. وحين مررت بالمرآة طالعني وجه بالكاد عرفته .. وجه لفحته المرارة والضياع .. كانت عيناه تومضان كخرزتين زجاجيتين ... وشفتاه بدتا وكان بريق الحياة قد نضب منهما ..بينما كنت أنضو عني ثيابي الملطخة بالوحل.. كانت هناك أخيلة وهواجس كثيرة تتراكم وتزدحم في رأسي .. علامة الاستفهام.. التشتت..الضياع..الوحل .. المياه المهدورة ... ال!!!؟

وهنا عند هذه الفكرة الأخيرة توقف كل شيء .. تعاقب الصور والأفكار.. عقارب الساعة المشدوهة.. أحسست بإحساس أرخميدس عندما قفز من الحوض عاريًا في اللحظة التي تجلت فيها الإجابة عن «اللماذا» التي أرّقته طويلاً .. والآن ها أنني أيضًا أقبض على الطريدة .. بل ها هي الطريدة تستسلم من تلقاء نفسها .. تجثو عند قدمي قائلة: هيت لك ، كثمرة أعياها النضج فسقطت من تلقاء نفسها بين كفي.. ها أنني أخيرًا أقبض على الحقيقة.. حقيقة وجودنا نحن العاجزين والفارغين والخاوين من الأحلام والأمل.. والذين يعلقون خيباتهم على مشجب الحياة والآخرين .. نحن الذين نقوم بهدر رصيدنا من الحياة كتلك المرأة الممسكة بخرطوم المياه التي تتجمّع وتركد مشكّلة بذلك مستنقعات تعيق وتلوث الوسط الذي نعيش فيه ، ولعل المعضلة الأكبر هنا ليست في هدر الحياة بل في التأثير السيئ أيضًا على المحيط الذي ستكون بالتأكيد إزاءه عقبات كأداء وأكوام من المخلفات المزعجة .بالماء المهدور نستطيع أن نزرع بستانًا أو على الأقل شجرة أو نبتة يأكل منها الناس ويتفيّأون بظلها.. وبأعمارنا المهدورة سفاهة وجهلاً نستطيع أن نعمّر العالم ونبني صروحًا من العلم والعمل والأمل في أن يكون الغد أفضل من اليوم .. فحين خلقنا الله سبحانه وتعالى وأخرجنا من ظلمات ثلاث إلى النور بسط تحت أقدامنا الأرض ، وسخر لنا كل ما في جوفها وفوق ظهرها لكي نحمل مشعل تلك الرسالة المقدسة التي أشفقن منها حتى الجبال الرواسي .

اليوم وعند بزوغ الفجر حملت إبريقي لأداعب تلك البراعم الصغيرة فوق نافذتي بقطرات المياه اللؤلؤية.. فتحت بعضهن بتلاتها متثائبة ، فهمست إليها بحب : صباح النـور ...

* كاتبة وقاصة من ليبيا

وكان اللقاء

□ أحمد نايف معروف*

في ذلك البلد البعيد القريب الذي أحببته وأحببني شعبه كان اللقاء الأول وبعدها تعددت اللقاءات وإن كانت على فترات متباعدة ولكن صداقتنا استمرت وتوطدت مع الأيام وازدادت صلابة ومتانة ولكن الأقدار شاءت أن نفترق وكان الافتراق الذي زاد عن العامين لنعاود اللقاء في بلد جديد. لقد كان لقاءا عظيما غير متوقع، فبعد تردد طويل قررت أن نلتقي نعم ربما تستغربون لماذا التردد لأنه لم يكن عندي سبب مقنع عن سبب افتراقنا ولوجود موانع عديدة لن أتطرق إليها الآن لكونها خارج محورنا.

ها نحن نلتقي من جديد، أنا وصديقي القديم الجديد، لقد التقيت به صدفة عند قارعة الطريق. كان الحزن والكآبة يعتريان وجهه والألم يعصر قلبه والدموع تملأ عينيه فما أن رآني حتى أتى إلي راكضا باكيا شاكيا معاتبا .. أين كنت ... لماذا تأخرت... و...و...و.... إلى ما هنالك من كلمات عتاب فبعد أن هدأت من روعه وآثار صدمته حتى بدأ بالحديث الذي لم أرغب في سماعه ولكنه أصر قائلا: »ألست صديقي الوحيد, فإذا لم أشكو إليك فإلى من سأتحدث وأبوح بما في داخلي...» أمام هذه الكلمات لم أجد ما أرد به عليه سوى الصمت.

بعدما أخذ نفسا عميقا بدأ بالكلام قائلا:

«ألا تذكر عندما كنا سوية قبل ما يزيد عن الثلاث سنوات وتلك القصة التي رويتها لك, ألا تذكر أني وقتها قلت لك بأني لن أحب مجددا, ألم أقل لك بأني انتزعت قلبي ودست عليه, ألم أقل لك بأني حولت قلبي إلى حجر خالي من المشاعر و الأحاسيس. ... ألا تذكر كل تلك الأحاديث... لقد عاد الحب ليطرق أبواب القلب مجددا, ها هي قد أتت من الماضي من المجهول من اللامعقول لتسكب على قلبي ماء الحياة لتعيد إلى ذلك الحجر الحياة والحب والحنان والأمل الذي افتقده لسنوات طوال.... بعدما أصبحت كل قصص الحب مجرد شيء من الماضي... لمجرد تاريخ لا يعود ولا يتكرر. نعم لقد أعادت الحياة إلى تلك القطعة المتحجرة الصلبة المهترئة بعامل الزمن والآلام... »وما أن صمت ليأخذ نفسا عميقا بادرته قائلا: »إلى متى ستبقى هكذا ... إلى متى ستبقى قاتلا لأحاسيسك ومشاعرك ... إلى متى... أو ليس لهذا الدرب من نهاية... إلى متى.... « وبكل ألم تابع حديثه...

« كما تعلم بأني قد قررت أن أوئد الحب قبل أن يبدأ خصوصا بعد كل قصص العشق والغرام التي عشتها وقررت والحبيب أن نسير دروبها حتى النهاية بحلوها ومرها ولكن مع الأسف كنت أعكف عن مواصلة الطريق عندما أعود إلى أرض الواقع المر الأليم الذي أعيشه وكل ما يترتب عليه هو أني كنت أنهي تلك القصص بمعارك صدامية وطرق أليمة مع الحبيب لدرجة أنه لا يعود هناك أي مجال لتعود المياه إلى مجاريها من جديد, كنت أضع العديد من السدود أمام محاولات قلبي الذي كان لا يزال يقاوم كل محاولات التهميش وفي آخر مرة عندما اصطدمت مع قلبي ... .» هنا أتممت أنا الحديث قائلا :»انتزعته ودست عليه وهددته بأنك ستنهي حياته إن أحب مرة أخرى ... وبقي ساكنا طوال سنوات ولكن الآن ....» هنا أخذ هو المبادرة قائلا :

«الآن المعادلة انقلبت و تغيرت كل الموازين ... الآن استعاد قلبي الحراك و الاستعداد للثورة.... نعم ... فالماء الذي سكب عليه أعاد إليه نشاطه وبقوة أخاف أن أعجز عن الوقوف أمامها ... اني أخاف المواجهة وأخاف أن يفرض علي شروطه ويصبح هو سيد الموقف بعدما تسيدته لسنوات طوال.

قلت له ما الذي تغير في الموقف الآن, قال ألم نلتقي لمرات و مرات ألم نتحدث لساعات وساعات ألم أقل لك بأني عدت لأحب من جديد ... ألم أقل لك بان قلبي عاد لينبض بالحياة من جديد ... ألم ... ألم .... لم أستطع أن أقاوم ... ماذا أفعل ... إن الواقع سد منيع يقف في وجهي كلما حاولت أن أخترقه فشلت؟ ماذا أفعل؟ الواقع أمامي مر ... الطريق طويل وجله مليء بالأشواك والأفاعي والذئاب... ماذا أفعل؟ اني في صراع داخلي عظيم ... بين القلب والعقل ... بين الواقع والحلم ... بين الأمل واليأس... وصراعي الأعظم هو ذاك الذي يجري مع نفسي... ماذا أفعل معها ..ربما أستطيع أن أروضها ولكن ماذا أفعل مع الآخرين... أسأبقى أقاتل وأناضل وأعارض وأسكت وأقمع...و... و...إلى متى ....إلى أن ....

هنا نظرت في عينيه ونهرته وقلت له ما عليك إلا أن تفعل كما فعلت. عليك بإخراج قلبك وتدوس عليه من جديد لكي لا يفكر بالحراك من جديد و...قبل أن أكمل قال لي لا تطلب مني مالا أستطيع وأعلم علم اليقين بأنك لم ولن تفعل ذلك. انك تقول مالا تفعل. خلال حديثه كان قلبي يبكي دما وكانت عيناي تبكيان بصمت وروحي تعزف لحن الموتى لتعلن وفاة قلبي الذي مات منذ زمن ولكني عندما نظرت إليه وتقابلت نظراتنا قال والدمع يملأ مقلتيه إن نار الثورة تحرق قلبي ولكنب سأتحملها وسأخرج تلك القطعة التي بدأت بالحراك من مكانها وسأطعنها لكي لا تحاول الحراك من جديد وأعلم يا أخي بأني إنسان خاوي المشاعر والأحاسيس وأني لن أحب مجددا ...

اعتذر مني واستدار. بعدما مشى خطوات قليلة إلى الأمام انتزع قلبه من صدره , طعنه بسكينه, ورماه جانبا .. تابع سيره والدماء تنزف منه..لوح لي بيده دون أن يلتفت إلي وابتعد...ما أن غاب عن ناظري حتى وقفت لأعيد حساباتي ... لأتعظ من صديقي ... إن قلبي يولمني اني....

قبل أن يغمض جفناي ويسكن قلبي أتاني ذلك الصوت...من بعيد من الماضي , من الحاضر من المستقبل ليقول لي ...انهض وأحمل قلب صديقك وأعطه إياه ... اني أناديك أنا الحب , أنا كل قصص العشق والغرام... اني أتيت من الماضي من الحاضر من المستقبل من المجهول من اللا معقول... انهض وأعد الحياة لصديقك نظرت حولي مستغربا فإذ بي أرى قاب صديقي ينتفض حملته وتتبعت آثار الدماء المسالة على الأرض, عثرت عليه هناك تحت الشجرة مضجرا بدمائه والدمع يسيل من مقلتيه ....بالرغم من سكون المكان إلا أني سمعت ذلك اللحن ... لحن الموتى ... نشيد الموت ... عندها عرفت بأن صديقي على وشك أن يموت... أسرعت بخطاي ونبضات قلبي تسبقني ... حنوت عليه محاولا إنطاقه.... كان عرقه يمتزج بدموعه ودمه.... كانت العصافير تعزف لحن الحياة و الورود تملأت المكان بالألوان و الشذا والعطر الفواح. عند ذلك تبسم و قال لي :» إلى اللقاء .. إلى اللقاء... إلى اللقاء... أبلغ الحبيب مني السلام... قل له اني أحببته كحبي لبلادي .. بأني سبحت ضد التيار و عاندته لأجله ... لكني لم أعد أقوى على مواصلة الدرب .. لا أستطيع .. لقد تعبت ...لقد نهشت لحمي الذئاب و الأفاعي...قاومت ... لكني متعب.. أريد أن أرتاح...» قبل أن يغمض عينيه قلت له خذ هذا قلبك الذي تركته خلفك, لقد عادت إليه الحياة من جديد ...لقد أتى الحب وسكب عليه ماء الحياة... وأوصاني أن أقول لك بأنه عليك أن تحيا بالشعور وأن تصبر فان ليلك سيزول وشمس صباحك قد شارفت على الشروق .... وأوصاني أن ....

عندها نظر في عيني ...

وابتسم...

* كاتب من الإمارات

سؤال في الليل

□ مجدي السماك*

القرية يلفها ظلام. الدنيا صقعت. الضوء الوحيد كان خافتا ينسل من نار ما فتئت تهس وسط دخان. فوق النار إبريق فيه شاي راح يئز. دخان رمادي ينتشر، فتحمّر له عيون رابضة في رؤوس بالتعب تنوء. أفواه سعلت، صدور خشخشت وإلى الأمام انحنت وتثاقلت وهي تميل. واستمرت النار تهس والإبريق يئز وينفث بخاره حتى انصب في أكواب، وكان يقرقر وهو ينصب. وساد صمت عصيب.

ثم في مجلسها راحت أجساد تتقلقل، وأفواه فغرت ونشطت فيها الألسنة ثم للكلام تأهبت. بعض ردّ ظهره إلى الحائط ومدّ ساقيه وتنهد وهو يمدها.. بعض ظل متربعا. أجساد ما زال فيها إعياء مزمن وشقاء عصي لا يفتر. وجوه نحيلة مكوية بالموت قد اختلط في سمرتها الدخان بالغبار والظلام فغمقت.. فبدت كأنما قطعت الظلام بظلام أغمق لا ينحسر. ارتفعت الأذرع لما الأكواب دارت وبكسل تناولتها الأكف، والأصابع حولها التفت.. ودارت معها كلمات عفوية نمت وترعرعت إلى تعليقات وهي تنساب شجية فيها دفء حزين من أفواه إلى آذان. وصار دفء بخار الشاي في الأكواب يلفح وجوههم وهم يرشفون ليغريهم ويمدهم بكلام أكثر، كلام حزين يتحرر من صدورهم ليذاع مقبوضا كصمتهم فيه قسوة حين يشيع.

وواحد منهم كان جالسا بعيدا عن النار يلوذ بالصمت وبه يعتصم.. ويمص أصابعه التي لسعها الشاي وهو يحاول انتشال لقمة خبز سقطت في قاع الكوب. وأقربهم إلى النار كان يقلّبها بعود سميك، وظل مرة ينفخ ومرات يهف عليها بذيل سترته الطويلة الملطخة بالسخام، ويفرك عينين دامعتين من دخان غزير يتصاعد ويتلوى وهو يسيح في ثنايا ليل شجي. ثم يضيف بلا تذمر ما يلملمه من عيدان حطب إلى النار كي تكفي إلى آخر السهرة.

ولما الأكواب شربت، جرّ الكلام كلاما فدفقت تعقيبات راحت تتلى وعلت وهي تتوالى..

– الله يرحمك يا حاج كنعان.. ويجعل قبرك واسعا مثل ملعب كرة القدم.. ليس كثيرا عليه.

. – كان رجلا أصيلا.. ربنا يجعل قبره مثل بركة السباحة.. فيه طراوة.. إنه يستحق كل خير

– دنيا.. رحمة الله عليه.. كان شهما.. سوف يبيض وجوهنا بين جميع الأموات.

– الحاج كنعان مات يا أولاد.. الله يرحمه.. سوف يرفع رأسنا في القبر.

– ربنا يبحبح قبره.. ويرحمه.. كان شجاعا.. مهيب الجانب.

. – لو أني اعرف أين قبره؟ سأرش عليه مياه معدنية أو حتى مفلترة.. ليس خسارة فيه

وقطع التعقيبات أبو شعبان، الذي يسرح كل يوم في الأسواق ليبيع الصابون على عربة صغيرة، ثم في المساء يؤوب إلى بيته وقد فتّ جسده إرهاق ممض. انتفض أبو شعبان في الحال، وهاج كمن سكب عليه ماء مغليا وراح يغرق المكان بضجّة لم يكن يتوقعها أحد من الساهرين، وصار يلوح بيدين مفلطحتين فيهما شقوق كل شق منها يكفي لابتلاع خيارة، وأوشك متن كفه أن يصفع وجه المتربع إلى جواره وهو يلوّح ويصيح..

– يا ناس حرام عليكم. الحاج كنعان لم يمت. اقسم برب الكعبة لم يمت. حدا منكم سمع عن جنازته أو مشى فيها؟. هذه إشاعات، والله العظيم إشاعات. عيب عليكم والله عيب. هذا لا يرضي ربنا ولا يرضي عبيده.

وأيده في كلامه واحد من الجالسين في الجهة المقابلة وهو أبو جميل العربجي حين سأل.. هوّ يا ناس في ميت بلا جنازة؟. وراح في الحال يسانده في سؤاله أبو محمود الشحاذ الذي كان أيام زمان يعمل مغنيا في الأفراح.. ولما الزمن عليه جار صار يقف طوال اليوم قرب السوق يمد يده ليستجدي المارة، وبسخاء يدعو لهم وللأغنياء منهم بكثرة المال ولا يدعو لنفسه ولا حتى بدرهم واحد.. جزم إنه ذهب إلى المقبرة ولم ير فيها أي قبر جديد.. إذن يا جماعة لا يوجد أي ميت طازج.. حد الله ما بيني وبينكم. لماذا لا تسألوا أبا صبري؟

وارتفع صوت خشن يشبه الطرق على برميل فارغ فيه بحة كئيبة، ليقول في سخرية لاذعة ويؤكد أن المرحوم مات ثم غير رأيه لأن القبر كان ضيقا، والمرحوم طوال حياته يحب البراح. ثم تابع في جد كبير كسا ملامحه وألهب قلبه قبل أن يشعل حنجرته ليؤكد إن الحاج كنعان مات تحت الركام.. ولم يستطع أحد انتشال جثته.. لأنهم كانوا يقصفون كل شيء.. ألا تعرفون طبع الصهاينة؟.. أما أمركم عجيب!.. اسألوا أبا صبري.

لوحة للتشكيلي اسماعيل الخياط

وصوت معلول تلاه فيه أنات علا فجأة وصار في انفعال واضح وتوتر أوضح يخاطب الجمع، بأنه في المعارك القادمة يجب على كل ميت أن يدّبر نفسه.. وينتشل نفسه بنفسه من تحت الركام ويخرج..

ويدخل قبره لوحده بلا أي تعب للآخرين من حوله.. وربما وقع في الحرام لما قال بلا جنازة وشكليات وكلام فارغ.. ومن الأفضل أن يبحث الميت بنفسه عن ماء يغسل به جثته ثم يكّفنها ويدخل قبره بقدمه اليمنى، ويتمدد فيه كما يشاء وأنى شاء، وبمقدوره إذا أراد وهذا حق له في قبره أن يضع ساقا فوق ساق.. والحي أبقى من الميت يا ناس.. يا روح ما بعدك روح.. آه.. ما في بعد الصراحة.. كلامي ما فيه زعل.

استمر النقاش يدور ليمتد ويصخب وهو يطول، فامتدت معه السهرة وطالت فنالت من مشاعرهم الآسية التي ما زالت حزينة رغم وقف الحرب.. ومداولات تترى في المكان ظلت تصخب وتغلي وهي تغلو وتفيض حتى اضمحلت في خمول، ثم هبت وراءها تعليقات مضادة لا هوادة فيها أخذت تبتلع في طياتها كلمات عابرة تولد دون أن يحفل بها أو بقائلها أحد.

ولمّا ملّوا كلامهم المجوج وعافوا ما فيه من تكرار مقيت لازمهم منذ بداية السهرة.. عندئذ رحلت عيونهم وأفواههم إلى وجه أبي صبري صياد السمك.. الذي أمضى أربعين عاما من حياته في البحر وصار يتطلع إلى الخمسين.. وقد خبر البحر إلى أن خبره البحر، حتى إن الأسماك كانت تستمتع وهي تموت في شباكه وبين يديه. وكل الساهرين راحوا تباعا يلحفون إلحافا وهم يلقون على أبي صبري أهم سؤال جابهوه في حياتهم، وقد يجابهونه في مماتهم.

– تكلم يا أبا صبري.. أنت الوحيد الذي مشى في جنازة الحاج كنعان. هل الحاج كنعان مات؟

وكان أبو صبري غارقا في أساه على غير عادته صائما عن الحديث منذ أول الليل. تنحنح أبو صبري وهو يعتدل وراح يجري ببصره ليمسح به وجوه الساهرين، كأنما ليتأكد من مدى جدية صمتهم الذي بالتدريج بدأ يعم. ثم حدق أبو صبري قليلا إلى وجه الرجل النائم إلى جواره والذي كان يشخر ويمط شخيره، وقد تدلت رأسه في حجره بين ركبتيه وصارت تنتفض وهي تتأرجح دون أن تثبت في مكانها فوق كتفيه، فقرص أبو صبري أذن الرجل وكاد يشرمها لكثرة ما شدّها كي ينبهه ليكف عن الشخير. ثم تفرغ للكلام..

– هذه ليست أول مرة يا جماعة يموت فيها الحاج كنعان. فقد مات قبل ذلك ست مرات.. وأنا قد مشيت في معظم جنازاته.. وفي كل جنازة له كان يقف وينتصب فجأة على النعش، وسط الطريق إلى المقبرة.. ثم يبدأ في شتم وزجر المشيعين، ويقفز عن النعش ويلاحقهم ويرجمهم بالحجارة بإحدى يديه، واليد الأخرى ممسكة كفنه خشية أن يسحل أو يفلت فتظهر عورته. وفي آخر جنازة له قبل عدة سنوات صحا عندما مددوه في القبر قبل أن يطمروا عليه التراب..

وقام حينئذ الحاج كنعان من القبر وصار بهمّة يبصق على الحاضرين.. الذين تركوه وهربوا هلعين غير مصدقين ما تراه أعينهم.. كثيرة هي المرات التي ظن فيها الناس أنه مات... حتى اعتقد بعضهم أن عزرائيل لم يعد يجرؤ على الاقتراب منه..

والبعض شك بأنه ربما قد عقد صفقة مع عزرائيل. ولكن في الأيام الأخيرة ضعف الحاج كنعان وضؤل جسده لأنه هرم وأتت عليه السنون، وأنا استغربت عندما شاهدته قبل الحرب على غزة بعدة أيام..وكان بالإمكان وضعه في علبة حلاوة فارغة أو حتى في علبة سردين، لصغر جسده الذي انكمش.

وتهلل الواجمون وتكلموا.. فسكت أبو صبري.. وقال له أحدهم في قلة ذوق أنت ابتعدت عن الموضوع يا أبا صبري.. نحن لا نسأل عن ميتات الحاج كنعان السابقة .. نحن نريد أن نعرف الآن هل الحاج كنعان مات أثناء الحرب أم لم يمت؟ وتبعه أصوات أخرى راحت في الحاف شديد تسأل

– هل شاهدتهم يا أبا صبري وهم ينزلونه في القبر؟

– هل روح الحاج كنعان طلعت أم لا؟

– هل أخرج أحد الناس كل الجثث من المقبرة ليفتش عن جثة الحاج كنعان؟

تثاءب أبو صبري.. وتسارعت أصابعه على حبات سبحته الطويلة التي ربما فيها مليون حبه.. وراح يكمل كلامه وقد استتب الصمت وكان قد انتهى تماما من تثاؤبه..

– بينما كنت أشارك في جنازة الحاج كنعان الأخيرة.. وبينما كانت الدنيا في عزّ الحرب.. وكانت الطائرات تحرث أجساد الناس.. في هذه الأثناء سقط صاروخ على النعش.. فهرب الجميع مذعورين. لذلك لا أعرف ماذا حصل بعد ذلك.. لكنني سمعت واحد من الناس أخذ يقول فيما بعد إن النعش كان عليه نصف جثة الحاج كنعان.. ونصف الجثة الآخر لم يعثر عليه أحد.. البعض يظن أن نصفه بقي تحت الردم. ربما الصهاينة سرقوا نصفه المفقود.. وبعض يشك أن الكلاب المسعورة أكلته.. الله أعلم.. مجرد إشاعات.. طبعا.. ذمتي ليست واسعة.

ثم في لهفة اندلعت همسات استحالت إلى تساؤلات فيها شك يبحث عن يقين.. – طالما أن الصاروخ أصاب النعش، إذن من المحتم أن الحاج كنعان مات؟ أليس صحيحا؟ – آه.. صحيح!.. حتى لو نصف جثة؟.. هذا موت أكيد!.. تكلم يا أبو صبري.. أسوق عليك النبي..

تململ أبو صبري.. وراح يحلف اليمين تلو اليمين على أنه لا يعرف شيئا أكثر مما قال. وقال إنه لا يخبئ عنهم أي شيء يعرفه. وطلب من أحدهم أن يصب له كوب شاي ساخنا.. ثم في ثقة أردف إن هذه ليست أول مرة يظن فيها الناس أن الحاج كنعان قد مات.. وقد يظهر في أي وقت.. ما حدا يستعجل يا جماعة.

ولمّا الليل طال والسهرة أوشكت تنفض.. تعبت رؤوسهم وثقلت حتى لم يشعروا فيها وهي تدوخ وتميل فوق رقابهم.. فقاموا.. وآب كل واحد منهم إلى بيته.. دون أن يغيب عن ذهنه السؤال الذي بدأ يكبر مع كل خطوة بطيئة مترنحة فيها خدر.. هل الحاج كنعان مات؟

* قاص من سوريا

الصياد والبحر

□ ماهر طلبة*

زمان.. زمان قوي كان فيه صياد وحيد.. كان عنده مركب صغير جدا كان مصنوع م الخشب.. كان كل يوم الصبح يركب مركبه وينزل يمسح البحر من ناحية لناحية بالشبكة ويروّح.. يولع النار.. يرمي سمكه في ناره وياكل لقمته ومايلقاش حاجة يعملها فيسأل نفسه سؤال ويبدأ يدور له على إجابة تكون لها منطق ومعقولة.. مثلا في يوم من الأيام سأل نفسه.. « منين بيبدأ البحر..؟ «.. وفضل يفكر ويفكر وفي أخر اليوم قبل اليأس وقبل النوم زى الوحى جه الجواب..

«من عينين واحد حزين..»

.. ونام سعيد قرير العين مطمأن البال للجواب.. ومثلا في يوم سأل نفسه.. « ليه السمك مابيخلص..؟... وليه دايما بيقع في الشبك..؟ « وفي أخر اليوم هداه عقله لسبب معقول

... « السمك ما بيخلص لأن الطُعم مابيخلص.. ودايما يقع في الشبك لأنه عبيط زى الطُعم..»..

ونام سعيد.. وفي يوم.. وفي يوم... وفي يوم...

لكن في يوم.. وفجأه خطر على باله سؤال.. «ياترى الإجابات – إللي وصل لها بعد كل التفكير دا وإللي دايما بتتفق مع المنطق – ياترى هى الحقيقة.. وهل فعلا بيوصل للأجابة السليمة عن كل سؤال ؟...» يعني مثلا... « هل البحر فعلا بيبدأ من عنين واحد حزين.. وهل السمك فعلا عبيط...»

احتار أكبر حيرة.. سؤال صعب جدا لأنه كان بيحط منطقه وعقله نفسه تحت الاختبار... إزاى يثبت إنّ عقله سليم ولا... فكر كثير.. كثير... كثير.. وبعدين.. الصبح.. ركب المركب.. لم الشبكة ومامسحش البحر.. ماقطعهوش من ناحية لناحية إنما مشي عكس التيار.. أصعب ما في الدنيا إنك تمشي عكس التيار تتحداه وتقف قدامه.. في الأول كان السؤال متقل راسه فماقدرش التيار يرجعه، لكن بمرور الوقت وعند نقطة معينة غلب التيار تقل الراس فبدأت المركب تتحرك لورا.. كل ما يوصل عند النقطة ده يرجع لورا.. حاول كثير.. قاوم كثير.. يمكن يوم.. شهر.. سنة... ويمكن أكثر لكن في أخر اليوم.. في أخر الشهر.. في أخر السنة.. هده التعب فنام ولما صحي لقى مركبه الصغير جدا عند النقطة إللي بدأ منها الرحلة ولقى راسه لسه مليانه بالسؤال ـــ إللي أصبح متأكد إنه مش ممكن هيوصل لجواب له من الطريق دا.. هده اليأس.. هدته الحيرة.. هده الحزن.. فبكى.. بكى لإن اليأس قتْله .. بكى لأن الحيرة غلبته.. بكى لان الحزن مَلاه... وهنا فتح عينيه.. شاف قدامه بحر بيجرى ماكانش موجود قبل كدا هزه الفرح قوى.. قوى.. قوى.. فبكى.. بكى.. بكى.. بحر جديد

* قاصّ من مصر